تبعاً للرسالة البابوية « *Casti connubii* »

بحث اخلاقي لاهوتي

للاب شرل ابيلا اليسوعي

٢

الزواج المسيحي او سرّ الزواج

٣

١٠ استدراك وايضاح : المعنى الصحيح لنظرة القديس

وقد يتسرّع من لا يعمل الفكرة في الامور مليًا الى تقدير ما لم يخطر لنا ببال ، تحت النتيجة التي أدى بنا اليها البحث التاريخي السابق ، فيتوهم ان ماهية السرّ المجرّدة العامة ، على ما حدّدناها سابقاً ثم طبّقناها على القران المسيحي ، كانت قبل القرن الثاني عشر ، بل في اوائل النصرانية ، منتجة واضحة صريحة ، كما نجدها اليوم مبسوطة في الكتب اللاهوتية ، منذ اثبت بطرس لومبار تحديده للسرّ عموماً في السفر الرابع من « حِكَمه » ، حوالي العام ١١٥٠ .

لعمري انّ تعليلًا كهذا يكون وهماً محضاً واختلاقاً لا اساس له في النصوص التاريخية الصادقة ، بل فيها ما يكذّبه . من ذلك ما ورد للقديس بطرس داميانوس († ١٠٧٢) في عظته الـ ٦٩ : ثمة يُطلق اسم السرّ ليس فقط على ما هو منه حقيقي ، كالمعمودية والزيجة ، بل على ما لا ينطبق عليه بحصر المعنى ، كحفلة مسح الملوك وسيامة الراهبات . وقد نحا نحو القديس المذكور كثيرون في القرن الحادي عشر الذي عاش فيه ، ومن قبله .

ولا تعجبنَّ فان الاعتماد في العلوم ، ولاسيما في اللاهوت ، على معنى الالفاظ ، كما يُستفاد من الاصطلاح ، لا على مادّيتها المجرّدة فقط .

ولم تكن الحقيقة الراهنة لتحتاج ، في الدفاع عنها ، الى ان تُضخَّم . بل انَّ ما يُزاد مجّاناً على واقعيّتها يؤذيها لا يجديها نفعاً .

تؤمن وتُعلم الكنيسة المقدسة انَّ الزواج المسيحيّ هو سرٌّ حقيقي . ولا حاجة البتَّة ، كيما ندفع عنها تهمة اختراع العقيدة واختلاقها ، ان نمشّ ، في الاسفار المقدّسة او في آثار التقليد ، على تعليمها المذكور واضحاً منسّقاً مصرّحاً باوضاع علمية فلسفية ، كما ورد مثلاً في مؤلفات القديس توما الاكويني او في تحديدات المجمع التريدنتيني . بل حسبنا ، للبلوغ الى غايتنا ، أن نجد في النصوص المنزلة والتقليدية اصول هذا التعليم ذاته . وقد تكون هذه الاصول ، في مناهلها ، مشتتة غامضة . ولا عجب . فقد قال القديس بطرس انَّ « في رسائل اخيه الحبيب بولس » بالرغم من « الحكمة التي أوتيها . . . أشياء صعبة الفهم » وكذا ايضاً « في سائر الكتابات . »[1] وما يقول هامة الرسل في الاسفار المنزلة نستطيع ان نطبّقه ايضاً ، مع حفظ النسبة ، على مصادر التقليد ، ولاسيما اذا كانت قديمة العهد جدًّا ، تحتوي بعض الاحيان تلميحات الى وقائع وظروف قد يفوت معناها حتى جهابذة التفسير .

والى مثل هذه الاصول قد يعمد المسيحيون ، ولاسيما المفكرون منهم ، فيمكنون على درسها ملياً ويحاولون جمع شتاتها ، اذا ما كانت متفرّقة ، ويقابلونها بعضاً ببعض ، ويجدّون في استطلاع حقيقة معناها وشرحها ، على ما أوتوه من اساليب العلم والحكمة . فتارةً يُصيبون المرمى وتارةً يخطئونه . وقد تقوم بينهم الجادلات والمناقشات وتستغرق في بعض الاحوال احقاباً واجيالاً . وفي اثناء ذلك لا تنثأ السلطة الكنسية المعلّمة ، التي وكل اليها المسيح ان تسهر على الايمان والاخلاق ، ترقب حركاتهم وسكناتهم . ثم يأتي يومٌ ترى فيه أنَّ زمن الاخذ والردّ قد انقضى وانَّ الابحاث قد نضجت وحان لها ان تبتّ الامر .

---

(١) ٢ بطرس ٣ : ١٥-١٦

فاذا ما لفظت حكمها كان القول الفصل ، وخضع له كلُّ الذين لم ينهم الكبر والتمنت قول المسيح الى بطرس : « كل ما ربطته على الارض يكون مربوطاً في السماوات وكل ما حللته على الارض يكون محلولاً في السماوات »[1] والى جمهور معلمي الكنيسة ، اي الاساقفة خلفاء الرسل : « تلمذوا . . وعلموا . . وها انا معكم كل الايام الى منتهى الدهر . »[2]

قال آباء المجمع الڤاتيكاني[3] : « ليس تعليم الايمان ، الذي اوصى به الله ، بمثابة مخترَع فلسفي يُبسط فيُترك للاذهان البشرية تكتمله ، بل بمثابة مستودَع الهيّ سلّم الى عروس المسيح لتحفظه امينةً وتُصرّحه معصومةً . ومن ثمّ فالعقائد المقدّسة يجب ان يُحفظ دائماً لها ذاك المعنى الذي صرّحته ، في حين من الاحيان ، امّنا الكنيسة المقدّسة ، وليس لاحدٍ ابداً ان يدّعي ويحتجّ بما قد يكون أُوتي من فهم اسمى فيحيد عن المعنى هذا . « فليتموّنَّ اذن . . . ويتقدّمنَّ كثيراً شديداً ، في الافراد وفي الجميع ، في الانسان الواحد كما في الكنيسة جمعاء ، على مدى رقيّ الاجيال والقرون ، الفهم والعلم والحكمة : على شرط ان تنحصر هذه ضمن نطاق جنسها لا تتعدّاه ، اي ضمن نطاق العقيدة الواحدة والمعنى الواحد والرأي الواحد . »[4]

ذاك هو المعنى الصحيح لتطوّر العقائد في الكنيسة . ومؤدّاه انّ الحقائق الموحى بها من الله لا يعتريها جمود ولا يُضاف اليها دخيل اجنبي . لا يعتريها جمودٌ لانها تنمو وتحيا في ألباب المؤمنين ، فانهم يزدادون يوماً عن يوم فهماً لها واستيعاباً لفحواها ، بل قد يكون منها ما يُلمّ به مؤمنو الغد ولم يلمحه مؤمنو اليوم . الا انها لا يشوبها الدخيل الاجنبي لانّ ما فهمه اهل جيل ما احسن من سلفائهم لم يشوّهوا له معنىً ، بل انما اقتنوا ادراكه اكثر من سواهم ، وما عثروا عليه مما قد جهله الذين سبقوهم ، لم يخترعوه بل انما اكتشفوه ، بالجدّ والدرس ، في مستودع الوحي الذي تسلّمته جماعة المسيح من رسله الاطهار .

---

١) متى ١٦ : ١٩ ٢) متى ٢٨ : ٢٠

٣) الجلسة الثالثة ، الفصل الرابع في الايمان والعقل ، في مجموعة دنزنگر ع ١٨٠٠

٤) طالع انذار فنسان الليريني ع ٢٨ ، مين ل ٥٠ : ٦٦٨

وقصارى القول انّ تطوّر العقائد المشروع لا يُراد به تبديل الحقائق الموحى بها ولا زيادة عددها بل ازديادهـا هي وضوحاً وازدياد المؤمنين لهـا فهماً واستيعاباً ، تحت مراقبة الكنيسة وبفضل تعليمها المؤيَّد من الروح القدس[1].

وقد شبّهوا العقائد الكاثوليكية ، في تطوّرها ، بسفينة تسير مقبلةً الى الساحل . فما دامت تمخر بعيداً ، لا يراهـا جلياً الذين على الشاطئ ولا يميزون جميع ما فيها وعليها . لكنهم كلما اقتربت منهم وحدّقوا اليها ، تتجلى امـامهم بجملتها وبما عليها . وقد يتسنى لهم ان ترسو في الميناء فيلجونها ويجولون فيهـا ويستطلعونها بما فيها ومنها . فهل يكونون اذ ذاك قد زادوا عليهـا ام بدّلوا منها شيئاً ؟

١١ً تطبيق المبدأ الصحيح لتطور العقائد على سرّ الزواج

وطبقاً لهذا المبدأ عينه لم تتوصّل الكنيسة المقدّسة الى تحديد حقيقـة سرّ الزواج ، الا بعد ان تحقّقت وجود اصولها في مصـادر الوحي ، اي في الكتاب المقدس وآثار التقليد . واليك قوام هذه الاصول بالمعلومات التالية :

١ – رسم المسيح للزواج

من الايمان ان المسيح ، حيث امر بوحدة العقد الزوجي وحرّم حلّ رباطه ، قد قدّسه واعاد اليه كماله الاصلي كما رسمه الله منذ البدء . فيكون هـذا رسم الزواج من المسيح ، رسماً ثانياً ، ولا شكّ ، بالنسبة الى الرسم الاول الذي يرتقي الى عهد الفردوس الارضي ؛ الا انه رسمٌ حقيقي .

والحقيقة هذه ظاهرة في تعليم القديس بولس الرسول ، حيث يوصي من قبل الربّ يسوع بوحدة الزواج وينهى عن حلّ رباطه[2] . وقد اثبت سيـدنا يسوع المسيح التعليم نفسه في الانجيل الطاهر ، حيث ورد قوله المأثور : « ما جمعه الله فلا يُفرّقه انسان . »[3]

---

١) طالع مقال الاب بانثيل اليسوعي في تاريخ عقيدة الحبل بلا دنس ، في مجلة *Etudes* لعام ١٩٠٤ ، المجلد ١٠١ ، ص ٦١٢–٦٢٢

٢) ١ كور ٧ : ١٠–١١ ، ٣٩ . طالع ايضاً روم ٧ : ٢–٣

٣) متى ١٩ : ٦

وكثيراً ما يستنتج الآباء القديسون رسم المسيح للزواج مما جاء في الفصل الثاني من انجيل القديس يوحنا ، حيث فهموا انه ، جلّ جلاله ، قد حضر عرس قانا وصنع فيه معجزته الاولى ، اظهاراً لرغبته في ان « يُقدّس » الزواج.

من ذلك قول القديس ابيفانوس ، تعليقاً على الفصل الانجيلي المذكور : « يظهر لي أن يسوع دُعي الى العرس لسببين : احدهما ان يحوّط بالضاف والصلاح الزواج الذي كانت اهواء البشر تتدفّق عليه كمياه طاغية . والآخر ان يخفّف وطأة عذاباته المستقبلة ، بعذوبة الخمر التي ترفع الاحزان وبالنعمة.»[1]

وقال القديس اغوسطينوس : « انّ الغاية التي من اجلها اتى الرب الى العرس هي تأييد العِشرة الزوجية واظهار سرّ الزيجة.»[2]

ب – في الزواج المسيحي نعمة مكفولة للقرينين

ومما يعلّمه الآباء ايضاً أنّ الزواج المسيحي يُعطى به القرينان نعمةً عليها يرتكز اتحادهما وبها يؤيّد ، فهو الله ذاته الذي يرأس حفلة قِرانهما كيما يجعله متيناً غير قابل الانحلال ويكفل لهما النعم التي تمكّنهما من القيام بواجب الامانة الزوجية.

قال ترتليانوس : « من اين لنا ان نصف غبطة ذلك الزواج الذي تُهنّى بعقده الكنيسة وتثبته التقدمة وتختم عليه البركة الكهنوتية ويُذيعه الملائكة ويُقرّه الآب ؟ »[3]

وقال اوريجانوس : « انّ الله هو الذي يجمع العروسين فيجعلهما واحداً ، فاذا ما اقترنت المرأة بالرجل فلا يكونان بعد اثنين . وبما انه تعالى هو الذي يوحّدهما فمن اجل هذا تستقرّ فيهما النعمة . ولم يكن بولس ليجهل هذه الحقيقة.

١) ضدّ البدع ٥١ : ٢٠ ، مين ي : ٤١ : ٩٤٢

٢) شرح يوحنا ٩ : ٢ ، مين ل : ٣٥ : ١٤٥٩ – طالع ايضاً كتاب القديس ذاته « في الخير الزواجي» ٣ : ٣ ، مين ل : ٤٠ : ٣٧٥– وايضاً شرح يوحنا لقديس كيرلس الاسكندري ٢ : ١ ، مين ي : ٧٤ : ٢٢٤ – وملخّص اكاذيب المراطنة لتيودوريت ٥ : ٢٥ ، مين ي : ٨٣ : ٥٢٧ – والمجموعة ٢٣ للقديس مكسيموس التوري ، مين ل : ٥٧ : ٢٧٤ – والقديس يوحنا الدمشقي في « الايمان الارثوذكسي » ٤ : ٢٤ ، مين ي : ٩٤ : ١٢٠٦

٣) الى زوجته ٢ : ٧ ، مين ل : ١ : ١٣٩٦

ومن ثمَّ فقد صرّح أنَّ القران المطابق لكلمة الله هو نعمة من لدنه عزّ وجل .»[1]

والقديس اثناسيوس رسالة الى الراهب أمون ، يُقابل فيها الزواج بالبتولية فيقول انه ، وان كان المتزوج « لا يُرزق نعماً بمقدار ما ينال البتول ، الّا انه له منها نصيب ، هو بمثابة الزرع الذي يُعطي الواحد منه ثلاثين .»[2]

ت – الزواج رمز الى اتحاد المسيح بالكنيسة ومن ثم يستوجب النعمة

على انَّ الزواج المسيحي يقتضي النعمة بنوع خاص ، لما فيه ، بموجب ارادة الله ، من الدلالة على امر تفوق قداسته كلَّ ما يمكننا تصوّره ، ألا وهو اتحاد المسيح السرّي بالكنيسة . ومن اجل هذا يدعوه القديس بولس سرّاً عظيماً . قال :

« لتخضع النساء لرجالهنَّ كما للربّ . لان الرجل هو رأس المرأة كما انَّ المسيح هو رأس الكنيسة مخلّص الجسد . فكما تخضع الكنيسة للمسيح فكذلك لتخضع النساء لرجالهنَّ في كل شيء . ايها الرجال احبوا نساءكم كما احبّ المسيح الكنيسة وبذل نفسه لاجلها . ليقدّسها . . . ليهديها لنفسه كنيسة مجيدة . . . فكذلك يجب على الرجال ان يحبوا نساءهم كاجسادهم . من احب امرأته احبّ نفسه . فانه لم يُبغض احد جسده قط بل يغذّيه ويربّيه كما يعامل الرب الكنيسة . فاننا اعضاء جسده من لحمه وعظامه . ولذلك يترك الرجل اباه وامه ويلزم امرأته فيصيران كلاهما جسداً واحداً . انَّ هذا لسرٌّ عظيم . اقول هذا بالنسبة الى المسيح والكنيسة . وانتم ايضاً فليحبّ كل واحد منكم امرأته كنفسه ولتحبّ المرأة رجلها .»[3]

كلٌّ يعلم نظرية القديس بولس في شأن اتحاد المسيح بالكنيسة . فانّ هذا الاتحاد هو ، في اعتقاد الرسول ، متينٌ صميم الى حدّ انه لا يتردّد في القول ، على ما تتحقق في النصّ السابق ، انَّ ابناء الكنيسة هم « اعضاء جسد يسوع من لحمه وعظامه .» وقد تلقّن القديس بولس هذا التعليم من الربّ بذاته ،

١) التعليقات على متى ١٩ : ١٦ ، مين : ي ١٣ : ١٢٢٩

٢) مين ي : ٣٦ : ١١٧٣ ، ١١٧٤

٣) افس ٥ : ٢٢–٣٣

حيث كان سائرًا من اورشليم الى دمشق فصمه يناديه من اعالي السماء قائلًا : « شاول شاول لِمَ تضطهدني ؟ »[1] وانما كان شاول وقتئذٍ يضطهد الكنيسة لا المسيح بالذات. لكنه فهم اذ ذاك انَّ كليهما ، في عرف الرب ، واحد . وقد طالما تبصّر القديس بولس مليًّا في هذه الحقيقة . ولذلك يكاد يعود اليها كل حين في رسائله ،[2] فكأنها اضحت من اركان تعليمه .

ولا يتوهمنّ احدٌ انَّ ما يُعوَّل عليه ، في اسناد عقيدة سرّية الزواج الى النصّ البولسي المذكور آنفًا ، انما هو لفظة « سرّ » الواردة في الفقرة « انَّ هذا سرٌّ عظيم » ، كما لو كان الرسول يقصد بها « السرّ » (sacrement) ، على ما يُحقّق معناه في كل من اسرار البيعة السبعة ، اي من حيث يراد بـه علامة انشأها المسيح للدلالة على النعمة ولفعلها .

فانَّ الواقع هو بالخلاف . وما من معنى هنا للفظة « السرّ » سوى السرّ (μυστήριον, mystère) ، من حيث كونه يدلّ على حقيقة عميقة غامضة سامية تفوق الادراك الطبيعي . وانما اشار بها القديس بولس ، على ما فسّر الاب پرا ، « الى الخطة التي فكر الله فيها منذ الازل[3] ، لكنه لم يكشفها الا بالانجيل ، وهي أن يخلص كل الناس ، بدون ما تمييز لذرّية عن غيرها ، بان يوحدهم وابنه الحبيب بوحدة جسده السرّي . »[4]

وعن هذا السرّ عينه يُفصح القديس بولس في رسالته الاولى الى تيموتاوس ويشير اليه بنفس الفقرة اليونانية الواردة في الرسالة الى اهل افسس . قال : « ومن المسلَّم انه « عظيمٌ سرٌّ » (μυστήριον μέγα) التقوى الذي تجلّى في الجسد وتبرَّر بالروح وروئي من الملائكة وبُشِّر به في الامم وأُومن بـه في

---

١) اعمال ٩ : ٤

٢) طالع روم ١٢ : ٥ ، ١ كور ٦ : ١٥ ، ١٠ : ١٧ ، ١٢ : ١٢-١٣ ، افس ٤ : ١٥-١٦ ، كول ١ : ١٨ ، ٣ : ١٥ الخ

٣) طالع كول ١ : ١٧-٢٠ ، ٢٧-٢٨ ، روم ١٦ : ٢٥

٤) F. Prat, S. J. *La Théologie de S' Paul*, Paris, Beauchesne, 19e édition, 1re partie, p. 369, طالع ايضًا المجلد ذاته ص ٥٨٤-٥٨٥

العالم وارتفع الى المجد .»[1]

فليس الزواج اذًا هو « السرّ العظيم » المحكى عنه في النص الذي اقتطفناه آنفاً من الرسالة الى اهل افسس . وانما السرّ هو الصلة السرّية التي تربط المسيح بالكنيسة ، هو الخطة التي اراد الله بها خلاص البشر بواسطة القران غير المنظور الذي جمع بين الكنيسة ورأسها الالهي.

ومع هذا كله فما من مجال للشك في معنى هذا النصّ الرسولي . فهو اكيد واضح واضح ، ومؤدّاه ان الزواج هو ، في عرف القديس بولس ، رمزٌ الى اتحاد المسيح بالكنيسة ، وذلك بمقتضى رسم الله ذاته . فكأنّ الرسول يقول : يريد الله ان يكون اتحاد الزوجين رمزًا الى اتحاد ابنه الوحيد بيعته ، وعلامةً له ، فيضحي هذا لذاك نموذجاً يتخذه الازواج دستورًا لحياتهم الزوجية ، حتى اذا ما طبقوها عليه ، تُحيي ذكر اتحاد الاله المتأنس بالكنيسة. « ولذلك يترك الرجل أباه الخ .» اي الى هذه الرمزيّة اشار الله واياها قصد حيث قال ، عندما انشأ الزيجة في الفردوس وحرّم فسخ عقدها بالطلاق ، ثمّ عندما جدّدها واعاد اليها رونقها الاول في الانجيل : « لذلك يترك الرجل اباه الخ . » فكما انّ المسيح احبّ عروسه البيعة حبًا فاعلياً كجسده ، كذلك يأمر الله ان يحب الزوج زوجته كجسده . وكما انّ المسيح والكنيسة جسدٌ سرّي واحد غير قابل الانحلال ، كذلك الزواج يجعل الرجل والمرأة جسدًا واحدًا لا ينحلّ.

هذا ما فهمه الآباء من النصّ البوليّ الذي نحن في صدده، منهم اغناطيوس الانطاكي († ١٠٧)[2] واغوسطينوس[3] والبابا لاون الاول[4] الخ.

ولكن من اين للارادة البشرية المجرّدة ان تستطيع الى تحقيق هذه المثلية سبيلًا سهلًا . من اين للزوجين ان يمثّل اتحادهما وحبهما المتبادل اتحاد المسيح

---

١) ١ تيم ٣:١٦

٢) في رسالته الى پوليكربوس ٥ : ١ ، مين ي : ٥ : ٧٢٤

٣) في الزيجة والشهوة سفر ١ ، فصل ١٠ ، عدد ١١ ، مين ل : ٤٤ : ٤٢٠ – كذلك في الخير الزوجي ١٨ : ٢١ ، مين ل : ٤٠ : ٣٨٧-٣٨٨

٤) في رسالته ١٦٧ : ٤ ، مين ل : ٥٤ : ١٢٠٤

بالكنيسة وحبه لها ، لولا النعمة السرية.

قال مونسبره : « لا يكون اتحاد المسيح بالكنيسة مثالاً ولا اتحاد الزوجين صورةً له تطابقه ، ولا رمزاً اليه ولا علامةً له ، ما لم يتضمن هذا ، كما ذاك ، قوّةً مقدسة . فلا يحبّ الرجل المرأة كما يحبُّ المسيح الكنيسة ، ولا تُحبُّ المرأة الرجلَ كما تحبُّ الكنيسة المسيح ، بدون ما نعمةٍ تنقّي المحبة وتعلي شأنها وترفعها الى ما فوق الطبيعة. فالمسيح ، فيما يبذل نفسه للكنيسة ، يقدّسها. وكذا الرجل والمرأة ، فيما يتبادلان بذل الذات ، ينبغي ان يُقدّسا بعضهما بعضاً . وهذا هو ما يجعل الزيجة « سرّاً عظيماً »[1]

وقصارى القول ان القديس بولس ، في النصّ الذي اوردناه من رسالته الى اهل افسس ، لا يُصرّح بسرية الزواج ، لكنه « يلتمح » اليها ، لانّ الاقتداء المتواصل بالمثال الاعلى ، على ما يوصي به الرسول القرينَين المسيحيين ، يقتضي ان يتضمّن عقدُهما تلك النعمةَ السرية.

واليك ما قال في هذا المعنى آباء المجمع التريدنتيني : « اما النعمة التي من شأنها ان تكمّل ذاك الحب الطبيعي في الزوجين وتُثبّت وحدتهما غير القابلة الانحلال وتقدّسهما ، فان المسيح ذاته ، راسم الاسرار الجليلة ومكمّلها ، قد استحقها لنا بآلامه . والى هذا « يُلتمح » بولس الرسول حيث قال : « ايها الرجال احبوا نساءكم كما احبّ المسيح الكنيسة وبذل نفسه لاجلها » ثم اردف القول : « انّ هذا لسرٌّ عظيم . اقول هذا بالنسبة الى المسيح والكنيسة »[2]

ث – الاحتفال بالزواج بحضرة خدّام الكنيسة

ممّا يدلُّ على قداسة الزواج في نظر الكنيسة ، أنها منذ اوائلها رسمت ألّا يُعقد الا بحضرة الكاهن ، كيما تكون البركة التي يستمطرها على القرينين ، ورتبة الاكليل المقدّسة التي يحتفل بها ، عربوناً للنعمة التي أناطها المسيح بالعقد الزوجي.

---

١) مونسبره ، ص ٢٠-٢١

٢) الجلسة ٢٤ ، في التعليم المختصّ بسر الزواج ، مجموعة دنزنگر ٩٦٩

ولدينا على هذه الحقيقة التاريخية شواهد قديمة يكاد يرتقي عهدها الى القرن الرسولي . من ذلك قول القديس اغناطيوس الانطاكي الشهيد ، تلميذ الرسول يوحنا الحبيب : « يجدر بالعريس والعروس ان لا يعقدا الزواج عن غير رأي الاسقف ، كيما يكون العرس بحسب الربّ ، لا بحسب الشهوة . فليقصد من كل شيء شرف الله »[1] اجل انّ هذا النصّ لا يشير الى شريعة صريحة كانت تلزم المؤمنين في اواخر القرن الاول وابتداء الثاني ، الا انه يدل على اماني اسقف انطاكية كما على عادة كانت جارية في ايامه .

ومن الكلام الذي ذكرناه سابقاً لترتليانوس[2] ، يحصّل صريحاً ان هذه العادة قد اضحت في ايامه وفي بلاده قاعدةً مضطردة لدى المسيحيين .

وفي موضع آخر يقول ترتليانوس : « انّ الزيجات الخفية ، اي التي لم يسبق اعلانها تجاه الكنيسة ، تُعتبر لدينا بمثابة الزنى والفحش . »[3]

ومن البدع التي جنح اليها ترتليانوس ، لما ان صار مونتانياً ، تحريم الزواج على الارامل رجالًا ونساء . ومن الحجج السفسطية التي يحاول ان يبني عليها ضلاله هذا أنّ القديس بولس الرسول يُحرّم سيامة اسقف سبق له ان تزوّج ، لداعي تزمّله ، اكثر من مرّة واحدة[4] . والشريعة ذاتها تجري على الكهنة والشمامسة . ومن ثم يستنتج ترتليانوس ان الارمل ، وان عالياً ، لا يجوز له ان يسأل الاسقف والكهنة ما لا يحلّ لهم ان يعقدوه لانفسهم ، الى ان يقول : « أفيعطي الاساقفة الازواج والزوجات كما يزعمون لهم الخبز ؟ . أم يزوجونكم هكذا في الكنيسة العذراء ، التي هي العروس الوحيدة للمسيح الوحيد ؟ »[5] ومن ثم يتضح لك انّ المسيحيين كانوا في عهد ترتليانوس ، كما في ايامنا ، يسألون الكهنة ان يمنحوهم بركة الاكليل .

ومن رسالة القديس امبروسيوس الى ڤيجيليوس يُستفاد ان رتبة الاكليل

---

١) رسالته الى پوليكربوس ٥ : ٢ ، مين : ي ٥ : ٧٢٤

٢) ص ٥٦٠ ٣) « في الحياء » ٤ ، مين ل : ٢ : ١٨٧

٤) طالع ١ تيم ٣ : ٢

٥) في « وحدة الزوج » ١١ ، مين : ل ٢ : ٩٩٢

كانت تقوم خصيصاً بامرين : اي بان يُجعل الكاهن رأس العروس بغطاء ويبارکها هي وعريسها (*velamen sacerdotale et benedictio*) [1] واليهما يضيف ترتليانوس[2] التقدمة (*oblatio*) التي قد يُدلّ بها على ذبيحة القداس.

ومما كان يجري في حفلة الاكليل في الكنيسة اليونانية ، على ما يشير اليه القديس غريغوريوس النزيزي[3] أنّ الكاهن كان يضع صفح كفّ العريس بصفح كفّ العروس .

وفي ميمر للقديس يوحنا فم الذهب يقول[4] : « فلا نقبحنّ اعراسنا بزخارف شيطانية ، بل ما فعله اهل قانا الجليل فليفعلنّه الذين يتزوجون اليوم ؛ فليكونَنّ المسيح جالساً في وسطهم . ولكن تُرى كيف يتم ذلك ؟ بحضور الكهنة انفسهم . لان الرب قد قال : « من قبلكم فقد قبلني . »[5]

تلك هي بعض المعلومات التي نجدها عن الزواج في الاسفار المنزلة والتقليد على ما نقله الينا الآباء في كتاباتهم ومواعظهم . وقد انصرف علماء الكاثوليك ، ولاسيما المدرسيون منهم ، الى درس هذه المعلومات . فتوغلوا في بحثها ومقابلة بعضها ببعض ، حتى توفقوا الى معرفة ماهية السرّ عموماً ، اي الى تعيين الاصول الجوهرية التي تتفق فيها الاسرار السبعة كلها ، دون سواها من الطقوس الدينية . فوضعوا لها تحديداً مجملاً شاملاً ، ونسّقوا لها جدولها الساعي المشهور . كل هذا والسلطة المعلمة في الكنيسة تراقبهم مؤيّدةً من الروح القدس ، الى ان جاء ذوو الاصلاح الموهوم ببدعهم . فحرّم المجمع المسكوني التريدنتيني اضاليلهم . وفي الوقت نفسه بسط للمؤمنين التعليم الكاثوليكي في الاسرار ، مستنداً الى مصادر الوحي ، اي الى الاسفار المنزلة والآثار التقليدية . فكان ، ولاشكّ ،

---

١) الرسالة ١٩ : ٧ ، مين . ل ١٦ : ١٠٢٦ – طالع ايضاً كتاب القديس ذاته « في الحض على البتولية » ٦ : ٢٤ ، مين : ل ١٦ : ٣٦١ – وايضاً رسالة القديس سيريشيوس البابا الى هيمريوس ٥ : ٦ ، مين : ل ١٣ : ١١٣٦

٢) في النص الذي ذكرناه آنفاً ، ص ٥٩٠

٣) رسالته ١٩٣ ، مين ي : ٣٧ : ٣١٦-٣١٧

٤) ميمره في الآية البولسية (١ كور ٢٧) «لسبب الزنى فلتكن لكل واحد امرأته» ، ع ٢ ، مين ي : ٥١ : ٢١٠

٥) متى ١٠ : ٤٠

تطوّر العقيدة ، في سرّية الزواج ، كما في غيرها ، تقدّماً ورقياً حثيثاً ، ليس من الحقائق الموحى بها فعلاً الى ما قد يُتوهّم أنّ الكنيسة ، معاذ الله ! أولجته فيها من الدخيل ، بل من معرفة اوّلية لنفس هذه الحقائق ، الى معرفة لها اسمى واكمل ، متقيّدة ابداً بمعناها الاصلي لا تحيد عنه قيد شعرة[1]

١٢ً علاقة العقد بالسر

بقيَ لنا في هذا الباب من بحثنا ، كلمة وجيزة في علاقة العقد بالسرّ . فنقول ان هذه العلاقة هي من نوع الصلة التي تربط حيثيتين مختلفتين بالمعنى لشيء واحد . فالعقد هو السرّ والسرّ هو العقد ، وكلاهما امرٌ واحد لا يختلفان في الحقيقة الواقعة ، الّا من حيث الاعتبار .

قال بيوس الحادي عشر[2] : « وبما انّ التراضي الزواجي الحقيقي نفسه بين المؤمنين ، قد جعله المسيح علامةً للنعمة ، فقد اضحى قوام السرّ ملتحماً بالزواج المسيحي التحاماً باطنياً يبلغ به الى حد انه لا يمكن ان يكون زواج حقيقي بين معمّدين « بدون ان يكون من ذات الفعل سرّاً »[3]

وانما هذه نتيجةٌ ، تكاد تكون بديهية ، لما حدّده المجمع التريدنتيني وقد ذكرناه سابقاً . فانه لم يُعلّم « انّ في الزواج سرّاً حقيقياً » بل قال « ان الزواج نفسه هو سرّ حقيقي »[4] . افلا يكون المعنى انه لا بد من التوحيد بين الفعل البشري ، الذي به يسلّم الرجل ذاته للمرأة وهي ذاتها له ، اي العقد الزواجي من جهة ، ومن اخرى الفعل الالهي الذي بها يُعطيان النعمة ، اي السر؟

١٣ً خادما السر

ومن ثمّ يتضح لك مؤدّى لفظة « الكهنوت » التي ألف البعض التعبير

---

١) طالع L. Godefroy, *Le Mariage dans l'Ecriture et les Pères* – Dictionnaire de Théologie Catholique, tome 9, 2069-2071 ; 2101-2109.

٢) الرسالة *Casti connubii* ص ١٦

٣) مجلة الحق القانوني العام مادة ١٠١٢

٤) طالع مونسيره ، ص ٢٥-٢٦

بها عن الخدمة التي يقوم به كلا الزوجين ، كلٌّ لقرينه ، بينما يتعاقدان . فان هذه اللفظة ، وان مجازيّة ، لا تبعد عن الحقيقة الراهنة ، وهي انّ العروسين هما نفسهما خادما سر الزواج .

وفعلًا لمّا كان العقد والسرُّ شيئاً واحداً ، وكان العقد هوَ هوَ السرّ ، والسر هوَ هوَ العقد ، فلا مشاحّة ان من يبرم العقد هو ايضاً خادم السرّ . وانما المتعاقدان هما العروسان ، فهما اذن خادما السرّ .

قال مونسيره : « اسمعوا هذا السرّ ايها الازواج ، وقد اصبحتم بفضل الزواج ، ارومة العائلة المسيحية ، فتحققوا ما هي منزلتكم السامية . انكم قد أُنلتم بالمعمودية شركةً في كهنوت يسوع المسيح ، وذلك بفضل الوسم الذي قد طُبع في انفسكم ، فشبّهها كما يشتهون الترع قصدَ ان يسيلوا فيها المياه المتدفقة من نهر عظيم . . . وقد قالت[1] انّ هذا الوسم هو قوةٌ قابلية تمكّن انفسكم المتعشة بنعمة المعمودية من قبول الاشياء المقدسة . فاردف اليوم قائلًا انّ في حياتكم المسيحية ظرفاً يكون به لوسم العماد قوةٌ فاعلية تُصوّركم بنوع اقرب على مثال كهنوت المسيح : ألا وهي القوة التي بها تُعطَون ، وتُعطَون معاً السرّ المقدس الذي يُحوّل هيئة الزواج فيجعله اقدس ممّا صنعه الله عند خلق العالم . »[2]

١٤ صلحة تلخيصية

وقد لخّص القانوني دوبلتي هذا التعليم بحديث فكاهي ، نشره في «النشرة الاسبوعية لابرشية نامور »[3] فاحببنا ان نتحف به القراء . قال :

أتت يوماً تزورني احدى الاوانس ، وكانت على أهبة الزواج ، فقالت :

يا حضرة الاب المحترم هاك شهادة معموديتي ، وقد قصدتُ قلّاية سيدة لوريت كيما احصل عليها .

---

١) في محاضرته في المعمودية

٢) مونسيره ، في مجلده المذكور ص ٢٦-٢٧

٣) نقله عنها الاب بيرنغه R. Béringer في مجموعته *Recueil Documentaire*, 2e Edition, *La Famille Chrétienne*, Arras, Librairie Brunet, pp. 22-24.

ـــ حبذا الحورية هذه ، فاني عتدتُ فيها زمناً طويلاً.

ـــ وقد عتدتني انا ايضاً . . . فانّ محضر عمادي موقّعٌ عليه اسمك.

ـــ ان هذا الاتفاق ليسرّني.

ـــ وليس هو فرداً من نوعه : لانك ايضاً انت الـذي اهبتني لمناولتي الاولى .

ـــ ولم يزل ذكرها قرينَ ذهني.

ـــ افترغب اذن ان تضيف « اتفاقاً » ثالثاً الى السابقين ، بأن تزوّجني ؟

ـــ ذاك ما كنتُ ، لو بالامكان ، اتمناه. لكنني لا استطيع اليه سبيلاً.

ـــ أفستتيب عنّا في ذلك اليوم !

ـــ لا سمح الله ! . . .

ـــ ومن ثمّ يكون لنا ، انا وخطيبي ، حظٌّ كبير اذا مـا ألقيت خطبة العرس المعتادة ، ولاسيما انك ما زلت تعرفني منذ صغري.

ـــ ذاك جلّ ما ابتغي.

ـــ افتزوّجنا اذن ؟

ـــ بلْ الاسف اعود واقول لك : انّ ذا لمحال.

ـــ لكنّ العوائـد تقضي ألّا يُفصَل بين الوظيفتين ! . . . على اني أُسلّم بالحكم : فلا شك أنّ ثمّة مانعاً خطيراً.

ـــ بل من اخطر الموانع.

ـــ وَ . . . هل لي ان اعرفه ؟

ـــ ولا ريب ! . . . أولستِ فعلاً تسألينني ان امنحك سرّ الزواج كما منحتك سرّ المعمودية ؟

ـــ هذا هو مطلوبي بعينه.

ـــ وهـذا ما لا طاقة لي به . . . لكونه محـالاً . فانه ، حيث يقترن مسيحيّان ، ليس الكاهن هو خادم السرّ ، وانما خادمه . . . بل بالاحرى خادماه هما الزوجان.

ـــ حقاً ؟ . . . انني لا افهم.

ـــ لم تفهمي بعد ... ولكنك ستفهمين حالاً . تعلمين انَّ الزواج هو عقد .

ـــ وهو ايضاً سرٌّ .

ـــ نعم ، هو سرٌّ للمسيحيين . لكنه ، قبل كل شيء وللجميع ، هو عقد . ثمَّ هوَ ، على ما قلتِ الآن ، سرٌّ للمسيحيين .

ـــ اجل وقد فهمت الفرق . فانَّ العقد يُبرَم في الدار المحافظية[1] ثمَّ يُقبل السرّ في الكنيسة .

ـــ أسفاً لك يا ابنتي ، فليس الامر بتاتاً على ما تقولين! ... فانَّ المسيحيين ، لا يمكن ان يُفصل فيهم بين العقد والسرّ ، وانما كلاهما فعل واحد لا اكثر . ولمَّا كان يتعذّر ان يجري الفعل الواحد في مكانين مختلفين ...

ـــ افمن اجل هذا تتمُّ الحفلة باجمعها في الكنيسة ؟

ـــ تلك هي الحقيقة تماماً : ثمّة فعلٌ واحد لا غير ، به يُوقّع على العقد ويُقبَل السرّ . فانَّ عقد الزواج بين المسيحيين وسرّ الزواج فيهم لشيءٌ واحد ... ومن ثمَّ فالذي يُبرم العقد هوَ هوَ الذي يصنع السرّ ايضاً .

ـــ وعندي ان الاستنتاج هذا ينطبق على المنطق لا محالة .

ـــ ففيما يتعلّق بقضيتك ، من يكون العاقد ؟

ـــ انا وخطيبي .

ـــ نعم . انت وخطيبك تحققان العقد ، فكلاكما اذن تحققان السرّ . فلا تكونان مُبرمين العقد فحسب ، بل خادمين للسرّ ايضاً .

هل فهمت الآنَ السبب الذي من اجله رفضت ان ازوجكما ؟

ـــ لاني انا وخطيبي سنزوّج بعضنا بعضاً .

ـــ لقد اصبتِ تماماً .

---

١) هذا ما يُدعى غلطاً زواجاً مدنياً . والصواب ان الزواج المدني ليس زواجاً حقيقياً . والبرهان يبسطه القانوني دوبلسي فيما يلي . ومؤدّاه أنَّ عقد الزواج بين مسيحيَّين هو انوٌ ، ما لم يكن عقداً وسرّاً معاً . ومن ثمَّ لا سلطة للحكومة المدنية على العقد الزواجي بين المسيحيين .

— فما هي ، والحالة هذه ، وظيفة الكاهن في العرس؟

— هو الشاهد . ولكما ، علاوةً عليه ، في الاقل شاهدان ، تستطيعان ان تختاراهما على ما تُحبّان . لكنَّ ثمة شاهدًا ثالثًا تُلزمكما الكنيسة به : وهو الكاهن . . . كاهنكما . . . اعني به خوريكما او الكاهن المفوَّض منه.

وفوق هذا اقول ان الشاهد الكاهن ليس فقط شاهدًا للصلة ، بل هو لها رئيسٌ لا مندوحة عنه . والمعنى انكما لا يمكنكما ان تكونا خادمَي زواجكما بابراز التراضي ، ما لم يوعز هو اليكما بذلك . اوَ تعرفين الكلمة التي ينبغي ان تلفظاها ؟

— هي كلمة « نعم » .

— فهذه كلمة « نعم » هي جواب . . . وكلُّ جوابٍ يُقدَّر تحته سؤال. والحال هنا انَّ السؤال تقتضيه صحة الزواج على قدر ما تقتضي الجواب عينه : فلا تكونان متزوّجين الّا بعد ان تجيبا : « نعم » على السؤال الذي يطرحه عليكما الكاهن قائلًا : هل تريدان ان تتزوّجا ؟

واقول اخيرًا انَّ الكاهن شاهد الزواج ورئيس الزواج هو ايضاً يباركه : فاذا ما مثل كاثوليكيان بين يديه ، يذكر قول الاسقف له عندما رسمه : « يجب على الكاهن ان يبارك » فعلى تراضيكما الذي يكون قد حُقّق به اقترانكما ، يستمطر بركات الله تعالى.

— اذن يا حضرة الاب ليس رجائي اليك ان تزوّجنا ، ولكن ان تؤاس زواجنا وتشهده وتباركه.

— هذا ما افعله مسرورًا.

(تمَّ المقال الثاني)